نظرات في كتاب

"أبو العباس أحمد بن شَكيل الأندلسي شاعر شريش"

د.عبدالإله نبهان

جامعة الإمارات العربية المتحدةالعين

مقدمة

أبو العباس أحمد بن أبي الحكم يعيش بن علي بن شَكِل – بفتح الشين– الصَّدَفّي الأندلسيّ من أهل " شريش" كان مولده سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، وتوفي مُعْتَبطاً سنة خمسٍ وستّمئةٍ، وكانت وفاته في رَيْعان شبابه وإبّانِ فتوّته ولم يجاوز السابعةَ والعشرين.

أخذ ابنُ شَكيلٍ عن مشيخة بلده، فدرس العربية كما درس علم الكلام وسمع الحديث من أبي الحسين بن زَرْقُون (ت621هـ) كما صحب القاضي أبا حفص عمر بَن عبدِ الله السُّلَمي (ت 603هـ) ... فعلى يد طائفةٍ من أعلام القضاة والمحدّثين تكوّنت ثقافته الشرعية والحديثية واللغوية حتى إنه ولِيَ قضاء بعض الكُوَر على حداثة سنّه في مجال القضاء... وكان يقول الشعر، وكان شعره مدوّناً مجموعاً في ديوان لأنَّ ابن الأبّار(ت 658هـ) قال في" تحفة القادم" : وله ديوان شعر وقفت عليه.[1]

وغاب ذكرُ ابن شَكيل في زحمة الأسماء في تراثنا العربي، ولم يذكر إلا عَرضاً، حتى إن " نفح الطّيب " تلك الموسوعة الأندلسية الضخمة لم تذكر له سوى مقطوعتين، كل مقطوعة بيتان.

لذلك كله كان حَسَناً وجميلاً ورائعاً أن نهد المجمع الثقافي في (أبو ظبي) بدولة الإمارات بنشر شعر ابن شَكيل، وجعله الكتاب الأول في السلسلة الأندلسية التي ينوي إصدارها لتولد من جديد كتب الغَرْب الإسلامي في أقصى الجنوب الشرقي من جزيرة العرب.

جُمع شعر ابن شَكيل على يد الباحثة " حياة قارة " من أحَد عشرَ مصدراً[2]، وذلك لأنّ ديوانه الذي أشار إليه ابن الأبّار قد فُقد خبره وعفا أثره.. لذلك لم يكن من سبيلٍ إلى إحياء شعره إلا بجمعه، وقد حالف الحظ الباحثة عندما " وقع بين يديها مخطوط هام يحفظ لنا ثروة أدبيةً هامّة عن عصر المرابطين والموحدين، حيث تَمثّل أشعار أبي العباس أحمد ابن شَكيل جزءاً هاماً من هذا المخطوط"[3] والمخطوط المشار إليه هو كتاب " كنز الكتّاب ومنتخب الآداب" لأبي إسحاق إبراهيم البونسي، وهو من محفوظات مكتبة النمسا (كرافت147).

لم تقدم لنا الباحثة أي وصف لهذا المخطوط، حتى إنها لم تذكر شيئاً عن مؤلفه ولم تحدد تاريخ وفاته على الأقل، ولم تضع أي صورة عن أي صفحة منه كما يفعل أصحاب صناعة التحقيق..

على كل حالٍ قّدم لنا هذا المخطوط من شعر ابن شكيل 379 بيتاً نُقل معظمها إنْ لم يكن كلّها من خطّه كما يصرح البونسي، وهذه الكمية كانت من أصل شعره البالغ 467 بيتاً، أي إن عشرة مصادر قدمت للباحثة(88) بيتاً فقط وقدم هذا المخطوط وحده معظم شعر ابن شَكيل المجموع.

قامت الباحثة بضبط الشعر ضبطاً تاماً ورقمت القصائد كما رقمت الأبيات في كل قصيدة وفسّرت المفردات اللغوية وقوّمت بعض ما وقعت عليه من التصحيف وأشارت إلى ذلك في حواشي التحقيق، وأخرج الديوان أو الشعر المجموع بتنفيذٍ أنيق وضبط تام وغلاف جميل، وقد قرأته مسروراً بإحياء شعر شاعر أندلسيّ ووقفت على بعض أخطاء، منها ما هو غلط طباعّي واضح، ومنها ما هو عن سهو، فآثرت التنبيه عليها جميعاً ضنّاً بهذا الأثر الجميل في إخراجه الأنيق أن يكون فيه ما يَعِيب وخصوصاً أن بعض قضايا الضبط تقود إلى خللٍ في الوزن أو فسادٍ في المعنى... وبعد ذلك التفتّ إلى الدراسة التي صدّرت بها المحققة شعر ابن شَكيل، ولم تخلُ تلك الدراسةُ من هَنَاتٍ الطباعة ولست بسبيلها،

وإنماء الذي أثار اهتمامي تلك الأحكامُ النقديةُ التي أُطلقت كيفما اتفق، وذلك المنهج التبجيليّ، البعيد كلّ البعد عن الدراسة الموضوعية، وتلك العبارات التي تَلْبَس لَبُوسَ النقد وليست منه ولا طائل وراءها ولا معنىً يستفاد... فأشرت إليها متمنياً أن ترى الباحثة وقْعَ دراستها لدى الآخر والإنسان لا يرى نفسه إلا بمرآة، وبناءً على ذلك فقد جعلت البحث قسمين، خصص الأول لتتبع هفوات ضبط الشعر وما اعترى بعضه من تصحيف وما ألم به من غلط طباعي معتمداً ذكر رقم القصيدة أولاً ثم تذكر أرقام الأبيات التي عُلّق عليها في القصيدة المشار إليها ورمزت للقصيدة بـ (ق) وللبيت بـ (ب). أما القسم الثاني فقد خُصص للتعليق بإيجاز على الدراسة التي تقدّمت شعر ابن شَكيل.

ق1:

ورد قول ابن الأبّار مقدّماً القصيدة " وله في مقتل أبي قَصَبة... مع قصيدة" والصواب: من قصيدة.

ب9: ورد صدره: قد أحزنته شُماتات (بضم الشين) والصواب فتحها.

ق2:

ب10: ورد: تأوينني هّمي، والصواب: تأوّ بني- بالباء الموحّدة –

ب15: ورد على هذا النحو:

ألا مِثْلَ لي فإنّه لي معجُزٌ وإني لأمثال الورى لَضروبُ

قالت المحققة: في الأصل (إنّه) وأضفنا الفاء ليستقيم الوزن.

قلت: إضافة الفاء من غلط القراءة، والصواب في الإنشاد:

ألا مَثَلٌ لي إنّه ليَ معجزٌ .....

فالشاعر يبحث عن مَثَلٍ يعبر عن حاله لا عن مِثْلٍ له بدليل قوله قبله:

أقول ونفسي والأسى قد تمازجا وقلبيَ من حّرِ الفراق يذوبُ

ب19:

أعاوِدُ لثْمَ التربِ فيه كأنّه لرشْفي ثغرٌ أغرّ شَبيب

والصواب: شنيبُ، بالنون.

ب20: أقام عليٌّ والصواب:عليٌّ

ب35:

وليس كمفقودٍ تقادمَ عهدُه وغطّى عليه مَسْحَنَا ومشيب

لم تعلّق عليه المحققة وواضح أن كلمة(مسحنا) لا دلالة لها هنا، وأعتقد أنها محرّفة عن كلمةٍ ما، وهو بمعنى (وغطّى عليه منكرٌ ومشيب) وهو يريد بدلالة ما تقدّمه أن المرئيَّ كان شاباً، وأنَّ المصاب به كان رُزْءاً فادحاً، فالأمر ليس كفقدان شيخٍ هرمٍ مسنّ عظّاه الشيب ومظاهر الهرم، وقد وردت كلمة(منكر) بهذا المعنى:

قالت عميرة: ما لرأسك بعد ما نَفِد الزمان أتى بلونٍ منكر؟

أعُميَر إنّ أباك شيّب رأسه كرّ الليالي واختلاف الأعْصُرِ

وهذا مما أنشده ابن سلاّم الجمحي في مقدمته لطبقات فحول الشعراء.

ق3:

ب10: ورد عجزه: (ولو رمتني جميع العَجَم والعرب)بتحريك عين (العجم)

والصواب: (العُجْم) بضم العين وسكون الجيم كيلا ينكسر الشعر.

ق5:

ب2: ورد عجزه: (فيا خيرَ مُنْعىً وشَرَّ نُعاتِ)

والصواب: (فيا خير مَنْعيٍ) وبه يستقيم الوزن والمعنى.

ب6: ورد فيه (للحيأ) مهموزاً والصواب: (للحيا).

ب12: وردّ فيه (إسحاق) منوناً بالكسر:

كمثلِ أبي بكرٍ ومثل سَليلهِ خليلي شعر أبي إسحاقٍ خيرِ لِداتي والصواب (إسحاقَ) بالفتح على المنع من الصرف وبها يستقيم الوزن.

ب16: ورد على هذا النحو:

فَقُلْ للمنايا قد وتَرْتِ سراتَنا سَراتٍ بظّنّي منهم بتراتِ

وعجز البيت وردت فيه (بظّنّي) بهذا الضبط العجيب ولا معنى له بها، ولعل هذه الكلمة فعل أمرٍ من الظنّ بمعنى اليقين وتكون بناء على ذلك (فَظُنّي) أي أيقني أيتها المنايا بأنّهم سوف يدركون ثأرهم منك، وذلك بدليل مخاطبة المنايا في البيت التالي:

فلو كنتِ شخصاً ما اجترأتِ عليهمُ وجنّبتهم عن هيبةٍ وهباتِ

ب21: ورد فيه(... وما هوِ آتٍ...) بكسر واو (هو) والصواب فتحها.

ق6:

ب2: ورد صدره: (عن درّة جلى الضريح جمالها) والأفضل أن تشدد لام (جلّى).

ب9: ورد كما يلي:

فاصبرْ، إنّ الحرّ مَنْ إنْ تدْعُهُ للصّبرِ طابت نفسُه وتسلّتِ

وصدر البيت مكسور، وصوابه(فاصبرْ فإنّ الحرّ....).

ق8:

ب4: ورد كما يلي

تخدي النجائبُ حولاً في نفائفها لا يأتيهنّ إعياء وتطليحُ

والصواب: (في نفانفها) وقد فسّرتها المحققة على الصواب في الحاشِية، أما عجز البيت فهو مكسور بهذه الصورة وصواب البيت كما أقدّر: (لا يأْتَلِيهنّ) أي لا يقصّر ولا يبطئ بهن إعياء ولا تطليح.

ب9: ورد صدره: (آل النبيّ لقد سُقيتمُ عللاً) الأفضل أن تشدّد القاف (سُقِّيتُمُ).

ب10: ضبطت فيه (أشلاء) في صدر البيت بالفتح:

(صلّى الإله على أشلاءَ مُنْجَدِلٍ).

والصواب بالكسر لأنها غير ممنوعة من الصرف، ولو كانت ممنوعة لصرفت لإضافتها...

ب15: ورد كما يلي:

لم يتّقوا الضربَ بالأكتافِ إذْ صُرِعوا بل النجيعُ على اللبّابِ مَنْضُوح

والصواب: اللبّاب، وبالتاء المثنّاة.

ب25: ورد صدره (وبالِسَاني عاوِدْ مدحَه أبداً)

والأفضل وضع فتحة على الياء: (وبا لسانيَ)

ق9:

ب6: ورد صدره (أصبح منبتُ سيرِهِ فله)

وهو على هذا مكسور الوزن ولا معنى له ويمكن أن يكون هكذا:

(أصبح منبتٌّ سَيْرُهُ فله) فيستقيم من المنسرح ويكون اسم أصبح مستتراً و(سيرُهُ) مبتدأ مؤخر و(منبتٌّ) خبر مقدم، وتكون الجملة خبر (أصبح) ويمكن أن يكون أيضاً (أصبح منبتّاً سيرُهُ فَلَهُ).

ب7: ورد صدره (شاهدٌ ما غاب في سريرته)

والصواب أن يكون الضبط (شاهدَ) على أنها فعلٌ ماضٍ وبها يستقيم الوزن ويصحّ المعنى وتصبح (شاهد) في صدر الصدر مقابلةً (طار) في صدر العجز ويستقيم البيت:

شَاهدَ ما غابَ في سريرته وطارَ إحساسُه مع الرّيح

ب9: ورد صدره:(عرّضْ بالحق) والصواب: (عَرّضَ) بالبناء على الفتح.

ق10:

هذه القصيدة من بحر الخفيف وردت فيها أبيات مدوّرة كتب بعضها على مقتضى التدوير كالبيت الثاني لكنّ الأبيات 8، 9، 12، 13، 19، 20، 21 وكلها مدوّرة لم تكتب على مقتضى ذلك...

ب18: ورد صدره: (ليس إلا التصبرِ أجدى) والصواب التِصبرُ

ب21: ورد في عجزه (منْ الله) والصواب فتح نون (منَ).

ق13:

ب11: ورد فيه (فيهنُّ) الصواب (فيهنَّ).

ب18: ورد على هذا النحو:

يا بنت عّمي هل سمعت بماجدٍ يبكين أوتى الذّم أطعم أوْكسا

قالت المحققة: "الشطر الثاني من البيت فيه خلل وقد أوردتُه كما ورد في أزهار الرياض".

قلت ربما كانت رواية الشطر الثاني على نحو مشابه لما إذا قلنا:

" يُهَدى له ذمٌّ إنِ اطعم أو كسا "

ب23:

ونسيتِ حُجْراً يومَ هيّج بالعصا أسَداً، مَنْ هاج الأسود تفرّسا

وعجز البيت مكسور وصوابه: أسداً، وَمْن...

ب28: ضبطت فيه كلمة (الرضا) بضم الراء والصواب كسرها.

ب34: فيه: (قالوا بنو)، والصواب: (قالت بنو) إلا إذا كان قد قالها حقاً على لغة أزد شنوءة المعروفة بلغة (أكلوني البراغيث).

ب39: ورد فيه: (أحسبتمُ كلِّ) بكسر لام (كل) والصواب فتحها.

ب42: ورد فيه: (يرجو نُداه) بضم النون والصوّاب فتحها.

ق14:

ب11: ضبطت فيه (الردى) بضم الراء والصواب فتحها.

ب15: ورد على هذا النحو:

فخلّت عليّ الأرضُ حتّى كأنّما حرامٌ على الأجفان أن تتطلّعا

ولم يظهر لي معنىً في (خلّت) فربما كان الأصل (فضاقت) ولا سيمّا أن القصيدة تصوّر حزنه على جدته وورد قبله:

دعتها المنايا فاستجابتْ دُعاءَها سريعاً وداعي الموتِ أسرعُ مَنْ دعا

ب16: ورد على هذا النحو والضمير فيه يعود على الأرض في البيت (15) المذكور سابقاً:

وحَتْمٌ عليها أن تَصُوب فما هَمَتْ على مُمْحلٍ إلا أصبحَ مُهْرَعَا

وصواب العجز: (على مُمْحِلٍ إلا وأصبح مُمْرِعَا)

وبذلك يستقيم وزنه ومعناه.

ق16:

ب9:

والبيتُ ذو الأستارِ تمسحُ ركنَه وُرْقُ الحمام عياذةٌ وتعطّفا

والصواب: (عياذَةً) بالنصب والتنوين.

ب13: شُلَّت يمين المْلجمّي فإنه....

والصواب: (شَلّت) بفتح الشين، وهو يريد الدعاء لا الإخبار.

ب14: أرتِ الشماتةُ بالوصيّ أميةً...

والصواب: أرتِ الشماتةَ بالوصيّ أميةٌ

ب15: ورد عجزه: يكفيك جمرةً يا أميةُ لو كفى

وبذلك ينكسر وزنه، وصوابه: يكفيك جَمْراً

ب23:

لو أنّ صقراً في مكان أميةٍ لحماً لحامَ على الحسين ورفرفا

الأفضل أن تُضْبط (لحِماً) بكسر الحاء احترازاً من الخطأ.

ب24: ورد صدره: أو ليثاً يومَ خرّ مكانها.

وقد سقطت (أنّ) والصواب: أو أنّ ليثاً....

ب25: ورد صدره: أَنَّ سِرْبَ قطاً....

والصواب: أو أنّ...

ق20:

ب6:

دعاه أناسٌ ترجمانَ ضميرُهُ وهل لبليغ حاجةٌ في النواجم

والصواب: (ضميرِهِ) بكسر الراء والهاء. وأظن أن كلمة (النواجم) مصحفة عن (التراجم).

ق21:

ب7:

شَهِدَ الزَّبُوُر بها ولا له فضلاً على المنثور والمنظوم

الصواب: شهد الزبوُر بها ورأى له

ب15: ورد صدره: فإذا طربتُ إلى النسيم فنفتةٌ

والصواب: (فنفْثةٌ) بالتاء المثلثة.

ب25: ورد صدره: كانت صحائفُ قفر غُفْلاً فقد...

والصواب: (كانت صحائفُ قَفْرِهِ).. وبه يستقيم الوزن.

ب34:

أو أصهبٍ شربَ المُدامَ أديمُه فأقلّ فارسه برسم قديم

والصواب "برسمِ بالكسر بلا تنوين. والمعنى غير واضح وربمّا كانت كلمة (قديم) مصحّفة عن (مُدِيم)

ب59 : ورد في صدره: والمُمْحِلاتُ، بضم التاء والصواب كسرها، لأن ما قبلها يقتضي ذلك والتقدير: بشّرْ المُمْحِلات:

بشّرْ يتامى المسلمين بوالدٍ منه يحوطُ ذمارَ كلّ يتيم

والمُمْحِلاتِ منَ البلادِ بوابلٍ من جودهِ يحيي الأنام سَجُومِ

ب73: مدوّر ولم يكتب على مقتضى التدوير

ب80: ورد عجزه:... سيّانَ فيه حاسدي ونعيمي

والصواب: سيّانِ، بكسر النون

ق22:

ب4: ورد عجزه: (أَرْدنا نواءً عندها وهْيَ في ظَعَنْ)

والصواب: (أردنا ثواء) بالثاء المثلثة.

ب8: ورد صدره: (وكالصّقْر فوقَ السابقات اغتضت به)

وأثبتتها في الحاشية (اعتَضَتْ) وقالت إنها من التعويض، وفسّرت(السابقات) بالخيول، وأظنّ المعنى لا يستقيم...؟

ب9: ورد عجزه: (طوتْ شخْصَه في قَيْدِ شبرٍ من الكفَنْ)

والصواب: قِيدِ، بكسر القاف، لأنّ القِيد هو المسافة أو المقدار

والقَيْد: الغلّ تقّيد به اليدان....

ق25:

ب2: ورد عجزه: إذا ذكّرت ... بتشديد الكاف والصواب: (إذا ذَكَرت) بتخفيفها.

ق26:

ب6: ورد في العجز:.. فأدنى جودَه والصواب: جودِه بكسر الدال.

ب7: ورد في العجز:... على عزَّهم والصواب: عزِّهم بكسر الزاي.

تعليق على التقديم:

قدّمت الباحثة لشعر ابن شَكيل وهو بين يديها محدود قليل بتقديمٍ دمجت فيه الكلامَ عن الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية وعلاقات ابن شَكيل دمجاً جميلاً، لكنّها وقعت فيما يقع فيه بعض الدارسين من المعاصرين من تعصّبٍ وتحيّز لموضوع بحثهم، فنرى الباحثة تجعل من ابن شَكيلٍ علماً بارزاً وشخصيةً متفرّدة، بل زعمت أنَّ إبداعه متميز بحقّ عن كل معاصريه، وذلك من غير ما مقارنة أو موازنة، بل من غير أن نعرف مَنْ هم معاصروه الذين تميز منهم ابن شَكيل، كما جعلَتْ منه (فيلسوفاً) وقالت بأن له نظرة إلى العالم، وقالت عن تعبيره اللغوي: إنه انفجاري[4]، وزعمت أنَّ له عالماً شعرياً فيّاضاً، بل إنها قالت عن قصيدةٍ مَدَح بها ابنُ شَكيل القاضي أبا حفص: إنها (من روائع الشعر العربي الخالدة) وذكّرتني لغتها النقدية بلغة أولئك النقّاد الذين تحدّث عنهم الدكتور عبد العزيز حمّودة في كتابه الهام جداً " المرايا المحدّبة"[5] ذلك النقد النرجسي الذي يريد لَفْت النظر إلى نفسه والإعلان عنها أكثر من حرصه على إضاءة النص المنقود أو المبحوث فيه، بل إنَّ بعض عباراتها الموهمة عِلْماً يمكن أن تطلق على معظم القصائد إن لم يكن على كلّها، فمثلاً نسمعها تقول بعد أن تُوردَ أبياتاً لابن شَكيل في المديح: " يبدو إذن أنّ القصيدة المادحة تمثل عالماً شعرياً تنسجم فيه مجموعة من العلاقات أو الثنائيات: المستوى المعجمي، المستوى النحوي للغة، الوظيفة الشعرية، الوظيفة المعرفية، المظهر الدلالي، المظهر التركيبي..."[6]إن تلك العلاقات التي ذكرتها وزعمت أن القصيدة المادحة تتألف من انسجام تلك العلاقات إنما هي علاقات لا بّد منها في كل قصيدة مادحة أو هاجية أو متغزلة أو راثية أو ساخرة أو ماجنة... فليت شعري أيّ قصيدة ليس فيها مستوى معجمّي ونحويّ ولها وظيفة شعرية ومعرفية ومظهر تركيبيّ؟؟ وذهبت الباحثة لتبني على تلك البديهيات التي بدت لها في القصيدة المادحة أحكاماً عجيبة كأنّها متمخّضة عن تلك

الـ(يبدو) قالت: " وإذا كان الأمر كذلك مع تلك القصائد، فإن القصائد الرثائية لا تخلو من ذلك، إذ إنّ البناء اللغوي والبناء الإيقاعي في هذا القصائد يشير إلى درجة خاصة في إدراك الوقائع والنظرة إلى العالم... إنّ إيقاع الحروف وأصوات الكلمات ومعجمها في هذه الرثائيات يكشف عن مستوىً معيّن يمثّل مستوى الوعظ والإرشاد حيث نستشفّ من رثائياته حكمةً عميقةً عن فلسفة الحياة والموت تشعرنا أننا أمام فيلسوفٍ حنّكته التجارب واختبرته السنون ولسنا أمام شابٍ في عُنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره"[7]...

فليت شعري ما الدرجة الخاصة في إدراك الواقع؟ وأيّ واقع هذا الذي تشير إليه؟ وما تلك الحكمة العميقة عن فلسفة الحياة والموت وهي مكررة وتتكرر في الشعر العربي، بل لقد أبلاها التكرار وأنفد جِدّتها، يدركها ابن العشرين كما يدركها ابن السبعين، فإنها هي هي منذ أيام لبيد وزهير تزداد عمقاً وتكتسب شفافية لدن شاعر كبير كالمعرّي، وتتسطّح مكررةً عند عشرات الشعراء... وهكذا قُدّمت الأحكام النقدية في صدر شعر ابن شَكيل وسارت على نمطٍ من الافتعال مدّعيةً مقاربةَ النص، وإنما هي متباعدة ومباينة، وكأنّي بالباحثة قد أخذت أحكاماً من التحليل اللساني والبنيوي مما يقال في نقد الرواية أو الشعر المعاصر وأرادت تركيبها وَلِيَّ عنقها لتتسع لابن شكيل أو ليتشكل ابن شكيل في قالب يناسبها، ويمكن أن أنسخ نصّاً للباحثة يقدّم لنا تصوّراً عن طبيعة تقديمها النقدي وذلك كي لا أُسهب في تتبّع كل فكرة أو فِقْرة، قالت:

" ولمقاربة هذه الأشعار نقول: إن عالم الخِطاب الذي تُحيل عليه النصوص الشعرية التي قالها ابن شكيل تتشكّل من مجموعة من العلاقات تربط بين مختلف المقولات النحوية التي تعكس كفاءة شاعرنا في بناء واقع حسب نماذج صوريّة متنوّعة، ويكفي الوقوف عند هذه الأشعار المتنوعة الأغراض والموضوعات لنلمس

بوضوح توظيف ابن شَكيل للأسماء والأفعال والفضْلة مثلاً، وهو توظيف حاول من خلاله أن يخلق نوعاً من التوازن- إن صحّ التعبير- بين القيمة المرجعية والمعرفية لهذه الأشعار وبين مستويات اللغة المتنوعة: تركيبية وصوتية ومعجمية وبلاغية... وعلى سبيل المثال لا الحصر نقف عند صفة تتكرر في أشعار ابن شكيل وهي (صدفيّةٌ كِنْدِيّةٌ) يقول في إحدى قصائده:

صدفيّةٌ كِنْديّةٌ ترعى المنى فلربّما أكلت مُرارَ سُمومي

ومن قصيدة أخرى:

بَكرتْ تلومُكَ في النّدى كنديّةٌ صدفيّةٌ تنمي السَّكُونَ وأشْرَسا

الملاحظ أنّه قد لا نجد في المستوى المعرفّي فارقاً بين هذين البيتين من الشعر، إلا أنّه في مستوى الميثولوجيا الشعرية يؤدي الاختلاف النَّحْوي بين الصيغتين إلى صورة كنائية عن "كندية صدفيّة" بوصفها كذلك، نعني اعتبارها في حدّ ذاتها (النسب العربّي) وباعتبارها إشارةً إلى امرئ القيس وعالمه الشعْري.

لذلك قد لا نبعد كثيراً إذا قلنا إنّ سرّ إبداع ابن شَكَيل كامن في هذا الاختيار الواعي للكلمات الذي خلق نوعاً من الانسجام بين المستويين الفونولوجي والنحْوي بشكلٍ يتناسب مع الواقع المرجعيّ الذي يعكسه مضمون القصيدة " [8]

هذا نصّ طويل نسبياً نقلته كما هو لدالته على طبيعة هذا التقديم النقدي لشعر ابن شَكيل، فقد عرّفتنا الباحثة أن الشاعر " يوظف الأسماء والأفعال والفَضْلة" ولكنْ أليست الفضْلة من الأسماء ؟! وأي شاعر في الدنيا في أي لغةٍ من لغات العالم لا يوظّف الأسماء والأفعال... وأتساءل أيضاً أين هي تلك (الميثولوجيا الشعرية) المبنيّة على اختلافٍ نحوّيٍ مزعوم في استخدام (كنديّة صدفيّة)؟! فـ (كنديّة صدفِيّة) في كِلا البيتين المذكورين أتت مسنداً إليه أو مسنداً في الأول ومسنداً إليه في الثاني على اختلاف

التقدير لدُنْ إنشاد البيت مفرداً.. فأين الخلاف وأين الاختلاف وأين (الميثولوجيا)؟ وأين تلك الصورة الكنائية عن النسب العربي؟ وما ذلك الانسجام (الفونولوجي النحوي) ما طبيعته؟ ما مصدره؟ أين تميّزه قياساً لقصائد لم ينسجم فيها(الفونولوجي النحوي)؟! ولست أدري ما إذا كان هدف الكاتبة أن تستخدم هذه التعبيرات بغضّ النظر عن مصداقيتها في السياق الذي تستخدم فيه؟ بل إنها استخدمت مصطلح (الثورة الثقافية) معبرة به عما قام في عهد الموحّدين من إصلاحات، كما أنها زعمت أنّ ألواناً ثقافية عربية إسلامية قد ولدت في مطلع القرن السابع، فأين هي؟ بل ما هي تلك الألوان؟! كل هذا الكلام لا مصداقية فيه ولا معادل له في الواقع.. وقد أحسست أن بعض العبارات فيها رائحةٌ ما، وكأنهّا مترجمة من لغةٍ ما إلى العربية من غير ما تمكّن، وذلك كهذه العبارة " وبفضل هذه الحلقات العلمية أيضاً نكتشف بعض المداخلات والاقتراحات التي كان يقترحها الخلفاء على العلماء والأدباء الحاضرين".

ولا أحبّ الاسترسال ولا أريده، وإنما كنت أبغي أنْ أبيّن أنّ هذا التقديم لا صلة له من الناحية النقدية بشعر ابن شَكيل ولا بغيره، وأنّه يمكن أن يقال في أي شعرٍ آخر مهما كان عصره.

أمّا ما زعمته عما وسمته بـ (روائع ابن شَكيل) وعن قصيدته (التي تُعدُّ من روائع الشعر العربّي الخالدة) [9]وعن كونه (فيلسوفاً) فهذه مزاعم تحتفظ بها لنفسها وتلك الروائع لم يدرك روعتها أحد غيرها، ويبقى ابن شِكيل بعد ذلك رجلَ علمٍ وصل شاباً إلى مرتبة أن وُلّي قاضياً، كان يقول الشعر شأنه شأن عشرات القضاة والعلماء في الأندلس ممن تزْخر بشعرهم كتب الأندلس كالإحاطة في أخبار غرناطة والذخيرة والمغرب ونفح الطيب وغيرها.. وهو يسير في شعره على النهج التقليدي الذي درج عليه الشعر العربي منذ مئات السنين قبله، كما أنه بعيد كلّ البعد عن عالم امرئ القيس وعن فضائه الشعري وذلك بحكم طبيعة مجتمعه ونشأته وثقافته، ووصلتُه بامرئ القيس إنما هي صلة ثقافية معرفية لا يمكن أن تخرج عن هذا.

لقد قرأت مجموع شعر ابن شَكيل غير ما مرةٍ فترك لديّ انطباعاً بأنه شعر شاعرٍ متمكّن في نظم القريض ويحسن المعارضة، وهو يوظف ثقافته التاريخية والأدبية والدينية في إغناء شعره، ويمكن للباحث بشيء من الجهد أن يعيد كثيراً من الأبيات إلى أصلها أو إلى مصدرها في الشعر العربي.. كما أنّه لم يكن متفّرداً علىأقرانه من أهل الأندلس وإلا لَمَا أهمله التاريخ الأدبّي هذا الإهمال إلى اليوم... كما أنه لم تكن له فلسفة جديدة في الحبّ الإلهّي، فهو تابع لمن تقدّمه.. بل إن تعبيره عن هذا الحبّ الإلهيّ[10] لم يكن رقيقاً ولا جميلاً ولم يكن معبراً عن ذوبانٍ ما في حبٍّ إلهي كما زَعمتْ..

ولم يخلُ تقديم الباحثة من أغلاط ربما كانت مطبعية وذلك كقولها" وما يميز هذين المرحلتين" والصواب "هاتين" وكنقلها عن أزهار الرياض " وكان فيهم الشاعر المغلق" بالغين والصواب بالفاء(المُفلِق) ... وهناك أمور أخرى.

أقول بصراحة إنّ هذا الضرب من الدراسة والنقد يمكن أن يسمّى بالتبجيل النقدي أو النقد التبجيلي كما يمكن أن يقال إنه (دَجَلٌ نقدي) أو (نقد دجليّ) وذلك لأنه لا مصداقية فيه ولا يلقي أي ضوء على شعر الشاعر ولا يُسهم في تبيان خصوصيته... إنه محاولة للاختفاء وراء مقولات لا يستطيع كتّابها أنفسهم تفسيرها لأنها لا معنى لها في هذا السياق، ولا خصوصية لما تطلقه من الأحكام.

وعلى كلٍ ومهما يكن فإنّ إصدار هذا الكتاب قد أبرز شاعراً كان غائباً كلّ الغياب عن مجال الدرسات الأدبية، وقدّم نُصوصاً كانت مختفيةً منذ قرون قابعةً في بطن مخطوط نادرٍ... وإذا كان التوفيق لم يحالف المحققة في التقديم للكتاب وإصدار الأحكام النقدية فيما أزعم، فإنه بلا شك قد حالفها في إصدار نصّ شعري كان مجهولاً، فلها بذلك فضل السبق والإحياء، وعلى الدراسين بعدها من المهتمين بشعر الأندلس أن يعتنوا بهذه النصوص دراسة وتمحيصاً ونقداً.

الهوامش

1- المعلومات استمدّت من مقدمة المحققة.

2- هذه المصادر هي:

1- أزهار الرياض للمقري/ مطبوع.

2- تحفة العروس ونزهة النفوس. التجاني.مطبوع.

3- تحفة القادم لابن الأبار. مطبوع.

4- الحسن والجمال لابن هذيل القرطبي(نقلاً عن ابن أبي الجلاب في روح الشعر) لم تذكره المحققة في المصادر والمراجع.

5- رايات المبرزين لابن سعيد. مطبوع.

6- كنز الكتاب ومنتخب الآداب لأبي اسحاق البونسي: مخطوط.

7- لمح السحر من روح الشعر ورَوْح الشِّحْر. ابن ليون التجيبي/ مرقون بكلية الآداب بفاس.

8- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد. مطبوع.

9- المقتضب. لم يُذكر في قائمة المراجع والمصادر كتابٌ بهذا العنوان؟!!

10- نفح الطيب للمقري. مطبوع.

11- الوافي بالوفيات. لصلاح الصفدي. مطبوع.

3. المقدمة: 3.

4. المقدمة: 16.

5. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك. عبد العزيز حمودة – عالم المعرفة 232- الكويت1988.

6. المقدمة: 24.

7. المقدمة: 24.

8. المقدمة: 22.

9. المقدمة: 17.

10. انظر ص88 ق26 وقد أبدت الباحثة إعجابها بهذين البيتين:

ولو أنّ قلبي في يديَّ بلا هوىً لجُنّ، فما ظنّي به وهُوَ الحَشْوُ
وما سرّني أن أملِك الأرض كلَّها وأنّ فؤادي من محبته خِلْوُ